الشباب اللبناني وذكرى الحرب: 13 نيسان 1975

الباحث الاجتماعي الدكتور ملحم شاوول يقرأ في كتاب الحرب:

أخاف ان يزج الشباب في حرب جديدة يكونون وقوداً لها

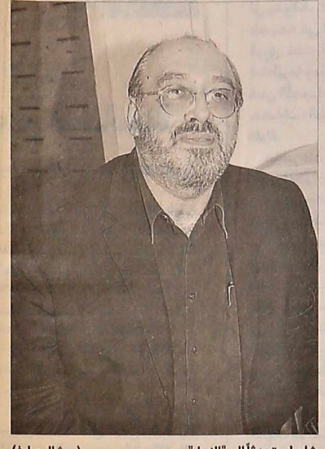

شاوول متحدثاً الى "النهار". (ميشال صايغ)

ليست الحرب بتذكر الوقائع التاريخية التي حصلت على مدى الاعوام الماضية، بل هي في النتائج التي تلقي بثقلها على الواقع الحالي، وعلى حياة الشباب الذين ورثوا خلافات اهاليهم وباتوا يتمياون لحرب جديدة. وهو ما ظهر واضحا في حوارات صاخبة لمؤلاء الشباب في "كلام الناس" مع الزميل مارسيل غانم الذي كشف في الحلقة الاخيرة من برنامجه معطيات مقلقة تستحق ان يتوقف المسؤولون امامها ويفكروا في ايجاد الحلول لها.

"النهار" التقت الدكتور ملحم شاوول الذي اجرى دراسات كثيرة في علم الاجتماع وكتب عن آثار الحرب النفسية والاجتماعية.

ويميز شاوول بين الشباب الذي خاض الحرب والاولاد الذين اصبحوا اليوم شبابا. ويرى ان تأثيرات الحرب لا تلمس في وقت محدد، وانما تظهر في شكل بطيء وبعد مدة طويلة، اي في مرحلة متأخرة من الحرب.

ويقول لـ"النهار" ان تلك الفترة لم تدرس في الشكل الكافي، إذ لا يوجد حتى الآن دراسات. لدينا واحدة اجريت في نهاية الحرب حول موضوع القيم في المجتمع اللبناني.

وفي موضوع القيم والاخلاق يقول ان الامور لا تبدأ من لا شيء، فتركيبة المجتمع اللبناني تجعله مجتمعا متنافسا وشديد النزاعات بسبب كثرة العائلات والطوائف... وقد ظهرت تدريجيا ثقافة العنف، التي لا ترى حلا للنزاعات بطريقة سلمية. وحينئذ بدأت تتردد عبارات مثل "صار بدها حسم، يا نحن يا هني، التي لم تكن معروفة في منطق العلاقات اللبنانية السياسية التقليدية القائمة على التسويات والعيش المشترك والتوازنات.

وقد استدعت ثقافة العنف تعبئة قائمة على منظومة جديدة من القيم هي "القيم الانتمائية" وابرزها الطائفية. وصار الاقتناع بأن الحياة "بلا دولة افضل"، فتراجعت فكرة الدولة كحالة اساسية في تنظيم حياة الناس واصبحت في المقابل المؤسسات العسكرية والحزبية والميليشيوية هي القيمة العليا.

هذه الامور ادت الى وقوع الحرب واستمرارها زمنا طويلا ولكن ماذا عن تأثيراتها على شباب اليوم يقول شاوول: "نرى انهم تربوا على عدد من القيم التي انتجتها الحرب واعتبروها حقائق لقد تربّى هذا الجيل في ظل "ابطال قياديين" يمكن ان يقودوا كل مجتمع من المجتمعات اللبنانية الى شاطىء الامان.

وانا ارى ان شباب اليوم يمر باضطراب في القيم السياسية والاجتماعية.

وقد تبيّن لنا في احاديث مع شباب ان لديهم الكثير من الاضطرابات في المفاهيم واصرارا على معرفة حقائق للحرب، ربما بهدف اعادة بناء ذاكرة جديدة للحاب. لكن واقع ما بعد الحرب لم يقدم لهم الكثير".

وسأل شاوول: "من يبني القيم الجديدة؟ هل هي المؤسسات التربوية والرسمية تحديدا؟ ام ان هذه القيم تعيد بناء نفسها بطريقة سلبية كما حصل سابقا.

الحقيقة ان تلك المؤسسات هي الطائفية والعائلية التي تقوى على الدولة في هذا المجال بسبب غياب مشروع الدولة".

وعن الارتباط العائلي يقول شاوول: "ان ثلاث ظاهرات حدثت في الحرب على مستوى الشباب بدءا من العائلة التي اصبحت منكمشة على نفسها وربما متضامنة للمحافظة على اعضائها.

وشهدت المرحلة نموّاً في استقلال الاولاد والمرأة، اذ اصبحت المسؤولية اكبر على الاخيرة بسبب توجه الذكور الى الحرب وبدافع هجرة الشباب.

اما ظاهرة الارتباط بالدين فيرى شاوول انها شكلت اساسا في تقاليد مجتمع الحرب "لكن يجب التميز بين الارتباط بالدين والارتباط بالطائفة كمؤسسة اجتماعية.

في لبنان تورد ابحاث امكان ان يكون شخص غير مؤمن متضامنا مع طائفته، وشخص آخر يؤمن ولا يقبل بممارسات طائفته.

ويرى ان ظاهرة التمسك بالدين هي نتيجة للقلق وخشبة خلاص للذي يعيش خطر الموت.

وعن موضوع التعصب الذي يزداد في اوساط الشباب يقول انه تراث التخلّف، بمعنى سيطرة البنى التقليدية في مجتمع اساسه النظام القبلي القائم على التضامن مع النفس ومحاربة الآخر وعلى تعايش ظرفي مع الآخر. والتعصب ينتج عن الايمان بالعنف عند فئات معينة تخاف على نفسها وتعتبر انها مهددة بالزوال وان العنف وسيلة لاستمرارها.

ويصف العلاقة مع الآخر من دين مختلف بأنها صعبة لأن البنى الذهنية عند اللبنانيين ما زالت تحوي حالة صدام ونزاع ومواجهة بين المسلمين والمسيحيين، بما يعني وجود اشكالية دائمة في العلاقة مع الآخر.

فقد رسمت كل فئة خلال الحرب صورة للآخر وكأنه العدو المطلق ومصدر تهديد.

ويضيف: "عندما انتهت الحرب وبدأ الاختلاط من جديد اضرّت به الدولة بالشكل السيئ الذي ادارت فيه شؤونها فتبين لأحد الاطراف ان الدولة تعامله كمهزوم وشعر الآخر بأنه منتصر. وتمت اعادة ترتيب الدولة لمصلحة فئة دون اخرى مما زاد التوتر الطائفي.

وأسف لأن اشخاصا كانوا مسالمين ايام صار لديهم موقف سلبي بسبب عدم تأمين التواصل والمشروع المشترك لبناء الدولة والمستقبل. فالاشخاص المهزومون والمهمشون يشكون الهيمنة ولا يمكن ان يبنوا علاقة طليعية مع الآخر.

ويضيف شاوول: "ثمة شعور دفع بعض الباحثين من زملائنا الى القول ان الحرب في التسعينات اكملت بطرق اخرى على الملاعب الرياضية وفي التسابق علي المذاهب في الدولة وفي تقاسم اموال المهجرين... اي هناك استمرار الصراع باشكال غير عسكرية.

وهذه الحالة ايضا ادت الى توتر وتعقدت الامور اكثر وظلت الصلة بالاخر متوترة.

وعن علاقة الشباب بالوطن يقول: "العلاقة بلبنان متينة والمشكلة الوحيدة في هذا البلد هي تأمين العمل.

الشباب متمسكون بالبلد لكن الحرب زادت الهجرة، وهذه الظاهرة مستمرة وعلينا ان ندرس حالاتها واسبابها. وما يخيفني هي الهجرة السياسية. فالعلاقات السياسية في لبنان تجعلنا نفكر بعمق ان انتماءنا وحريتنا وحرية تعبيرنا ليست مؤمنة في شكل صحيح مما يدفع البعض الى السفر.

وماذا عن استعداد الشباب اللبناني للعودة الى الحرب؟ يجيب انه سؤال مخيف، ولا يمكننا الاجابة عنه علميا. لكن الذي اخاف منه انه من السهل جدا تعبئة الشباب ولا نعرف كيف يمكن ان تكون الآلية. حاليا لا يمكن الشباب القول نريد ان نحارب، لكن اذا توافرت الظروف يمكن ان يزجوا في المشروع ويكونوا وقودا للحرب".

ويرى ان تجنب الحرب يكون بتأمين حرية التعبير، والحرية السياسية والاقتصادية. "فالسياسة الذكية هي التي توفر متنفسا ضروريا لكي يمحو آثار العنف ويفتح المجالات امام الشباب ويعطيهم حريتهم".

ويختم ان المعطيات للوحدة الوطنية متوافرة وعلى اللبنانيين ان يتفقوا على تفاصيلها، وهذا ايضا ممكن بالحد الادنى.

تنذكر ما تنعاد